حق من الله ثم من الأمة ثم من الرجل نفسه ثم من لطف المرأة وكرمها ثم مما بينهما معاً . وليس عجيباً بعد هذا ما روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ النساء أن يَسجدْنَ لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق »

وهذه عائشة أم المؤمنين قالت : يا معشر النساء لو تَعلمْن بحق أزواجكن عليكن ، لجعلت المرأةُ منكن تمسح الغبار عن قدمي زوجها بِحُرّ وجهها

* * *

قال أبو معاوية : وكأن الشيخ قد استبطأني وقد تركته في فِناء الدار ، وكنت زوّرتُ في نفسي كلاماً طويلاً عن فروته الحقيرة التي يلبسها ، فيكون فيها من بذاذة الهيأة كالأجير الذي لم يجد من يستأجره فظهر الجوع حتى على ثيابه ... وقد مرّ بالشيخ رجل من المُسَوِّدة[1] وكان الشيخ في فروته هذه جالساً في موضع فيه خليج من المطر ، فجاءه المسوّد فقال قم فاعبُر بي هذا الخليج ، وجذبه بيده فأقامه وركبه والشيخ يضحك

وكنت أريد أن أقول لأم محمد : إن الصحو في السماء لا يكون فقراً في السماء ، وإن فروة الشيخ تعرف الشيخ أكثر من زوجته ، وإن المؤمن في لذات الدنيا كالرجل الذي يضع قدميه في الطين ليمشي ، أكبر همّه ألا يجاوز الطينُ قدميه

ولكن صوت الشيخ ارتفع : هل عليكم إذْن ؟

قال معاوية : فبَدرْتُ وقلت : بسم الله ادخل ؛ كأني أنا الزوجة .. وسمعت همساً من الضحك ؛ ودخل أبو محمد فجلس إلى جانبي ، وغمزني في ظهري غمزة : فقلت : يا أم محمد إن شيخك في ورعه وزهده ليشبعه ما يشبع الهدهد ، ويرويه ما يروي العصفور ، ولئن كان متهدماً فانه جبل علم ، « ولا تنظري إلى عمش عينيه ، وحموشة ساقيه ، فانه إمام وله قدْر » [2]

فصاح الشيخ : قم أخزاك الله ، ما أردت إلا أن تعرفها عيوبي !

قال أبو معاوية : ولكني لم أقم ، بل قامت زوجة الشيخ فقبلت يده .

طنطا مصطفى صادق الرافعي

(١) الذين يلبسون السواد وهم شيعة العباسيين

(٢) ما بين القوسين هو الوارد في التاريخ وعليه بنينا هذه القصة

الدعوة الفاطمية السرية

ضوء على موضوعها وغايتها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لما قامت الدعوة الفاطمية بمصر ، وامتد سلطان الشيعة السياسي بين المغرب وأقاصي الشام ، عني الفاطميون أشد العناية بالمسائل المذهبية ، وعملوا على بث العقائد والمبادئ الشيعية بكل الوسائل ، واتخذت هذه الدعاية صفة رسمية في مجالس الحكمة الشهيرة التي كانت تنظم باديء بدء في القصر الفاطمي وفي الجامع الأزهر تحت رعاية الخليفة نفسه ، ويقوم بتنظيمها قاضي القضاة أو داعي الدعاة ؛ ثم أنشئت لها بعد ذلك جامعة رسمية خاصة هي دار الحكمة الشهيرة التي أنشأها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥م) ، ولبثت عصراً تقوم ببث الدعوة الفاطمية السرية في صور وأساليب ما زال يحيط بها الخفاء والغموض . ولقد تقلبت دعوة الشيعة قبل ظفرها السياسي الحاسم على يد الخلفاء الفاطميين في أدوار ومراحل مختلفة ، وتشعبت مذاهبها وإمامتها ، فظهرت الدعوة الاسماعيلية أولاً في ثوب دعوة دينية سرية ؛ ثم كانت ثورة القرامطة التي قامت عليها وانتسبت اليها ؛ ثم كان ظفر الفاطميين ، وقيام الخلافة الفاطمية ، فاتخذت الدعوة الشيعية بذلك لونها السياسي الواضح الى جانب لونها الديني ، وأدرك الفاطميون ما للدعاية الدينية من أثر في توطيد الملك السياسي ، فعملوا على بث مبادئهم وتعاليمهم بقوة وذكاء ، ووضعوا لذلك نظماً ومراتب سرية ، كانت دار الحكمة القاهرية مجمعها ومبعث وحيها

وقد اتخذت هذه الدعوة في عصر الحاكم بأمر الله لوناً من الخفاء والعنف ، لم تتخذه في أي عصر آخر ، يسبغه عليها خفاء الحاكم وعنفه ، وغريب تصرفاته وأهوائه . وكان الحاكم بأمر الله شخصية جريئة مدهشة برغم اضطرابها وتناقضها ، ترتفع أحياناً في سماء التفكير حتى لتزعم السمو فوق البشر وتهيم في دعوى الألوهية ؛ وتنحط في تصرفاتها الى درك الجنون . وكان ذلك

الذهن الهائم يشغف بنظريات الخفاء والعالم الآخر ، ويهيم فى غمر المباحث الروحية والفلسفية ، ويفيض من خفائه وشذوذه على جماعة من الدعاة الأذكياء الذين يحشدهم الحاكم حوله لينظموا معه وسائل الدعوة المذهبية السرية ، وليحملوا دونه تبعة ماتعرض من الأقوال والنظريات الجريئة المعنة فى الالحاد والهدم . ومن الحقائق المعروفة أن معظم الكتب والوثائق المذهبية التى وضعت فى هذا العصر قد دثرت ومحت معالمها يد الدول الخصيمة ، ولم تتلق عن هذه الدعوات السرية سوى قليل من الرسائل والشذور التى نقلها الينا بعض المؤرخين المتأخرين . على أن هذه الوثائق القليلة التى انتهت الينا تلقى مع ذلك شيئاً من الضياء على طبيعة هذه المبادئ والأقوال الخفية التى عمل الدعاة الفاطميون كثيراً لبثها ، والتى بعثت فى عصرها الى أصول الاسلام الحقيقية كثيراً من سحب الزيغ والريب

ومن هذه الوثائق طائفة غريبة من الرســـائل الفلسفية الكلامية تحتفظ بها دار الكتب المصرية ، وهى متنوعة فى موضوعها ، ولكنها متحدة فى أسلوبها وتدليلها وغايتها ؛ ويبدو من تلاوتها لأول وهلة أن موضوعها إنما هو جزء من الدعوة السرية الفاطمية ، وأنها كتبت فى أواخر عصر الحاكم بأمرالله ، وأنها حسبما يدعى كاتبها قد وضعت بوحيه وإرشاده ، وأحياناً بالتلقى عنه . أما كاتبها فمن هو ؟ فى معظم هذه الرسائل يقدم لنا هذا الداعية الغريب نفسه ، ويذكر لنا اسمه وهو « حمزة بن على ابن أحمد » وهو اسم قلما تذكره سير العصر ، ولا تقدم لنا أى تعريف شاف عن صاحبه ، وكل ما نعرفه أنه فارسى من مقاطعة زوزان ، وكان عاملاً يشتغل بصنع اللباد ، وفد على القاهرة حوالى سنة ٤٠٥هـ وانتظم بين الدعاة ، وخاض غمار الجدل الدينى الذى كانت تضطرم به مصر يومئذ . ومما تجدر ملاحظته أن معظم الدعاة واللاحدة الذين خرجوا على الاسلام وحاربوه باسمه ينتمون الى أصل فارسى ؛ بيد أنا نستطيع أن نعرف من هذه الرسائل كثيراً عن شخصيته وعن مهمته ؛ فهو بلا ريب من أكابر الدعاة السريين الذين اتصلوا بالحاكم بأوثق الصلات ، وتلقوا وحيه ، وبثوا دعوته ، وكان لهم أكبر النفوذ فى التوجيه الخفى لكثير من مسائل العصر ؛ وسنرى حين نعرض الى مهمته الحقيقية والى رسائله الغريبة أنه يقدم لنا نفسه أيضاً فى صفة النبوة ، ويصف لنا بعض أعماله بالمعجزات

ولدينا من هذه الرسائل مجموعتان : إحداهما فتوغرافية نقلت عن مخطوط محفوظ بالعراق ، والثانية خطية ، وقد اقتنتها دار الكتب أخيراً [1] ، والمجموعة الأولى أكبر وأعم من الثانية ، وبها كثير من الرســـائل التى وردت فيها ؛ غير أن الثانية (الخطية) تحتوى أيضاً على بعض رسائل لم ترد فى الأولى . وتسمى المجموعة الأولى فى صفحة العنوان « بالرسالة الدامغة » وتنعت بأنها رد على النصيرى (الفاسق) وهو ما يقوله لنا كاتبها أيضاً فى الديباجة ؛ وفى معظم هذه الرسائل يذكر لنا الكاتب اسمه وهو حمزة بن على . ولكن هناك مجموعة ثالثة تختلف فى موضوعها عن المجموعتين السابقتين ، وليس لها عنوان ، ولم يذكر فيها اسم الكاتب ، ولكنا لا نشك فى أنها من تأليف حمزة بن على نفسه لما بينها وبين الرسائل الأخرى من التشابه الواضح فى الروح واللهجة والأسلوب [2] . وسنرجئ الكلام عليها الآن ؛ ونبدأ ببحث رسائل هذا الداعية الغريب ، حمزة بن على ، ونحاول أن نستخرج منها بعض الحقائق التاريخية التى ما زالت تقدم إلينا فى أثواب من الريب والغموض والتناقض ، والتى كانت أعظم ظاهرة فى عصر الحاكم بأمر الله ، وكانت مستقى لكثير من النزعات والأهواء المدهشة التى أحاطت تلك الشخصية الغريبة بسياج كثيف من الخفاء والروع

* * *

من الحقائق التاريخية المعروفة أن بعض الدعاة اللاحدة قد دعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله ، وأن الحاكم كان يغذى هذه الدعوة ويعدها بتأييده . وقد ذكر لنا ذلك أكثر من مؤرخ ، فى مقدمتهم ابن الصابى ، وهو كاتب معاصر ، وشمس الدين سبط ابن الجوزى ، والذهبى [3] ؛ وكان فى مقدمة هؤلاء الدعاة شخص يدعى بالأخرم ، زعم ألوهية الحاكم ودعا إليها جهراً فى جامع عمرو

(١) تحفظ المجموعة الأولى برقم ٥٤ عقائد النحل ، وتحفظ الثانية برقم ١٣٣ عقائد النحل

(٢) تحفظ هذه المجموعة برقم ٣٥ عقائد النحل

(٣) نقل الينا صاحب النجوم الزاهرة روايات هؤلاء المؤرخين الثلاثة (ج ٤ ص ١٨٣ و ١٨٤)

مع نفر من أصحابه ، فثار الناس بهم ومزقوهم وفر الآخرم ؛ ثم قام بهذه الدعوة داعية آخر هو محمد بن اسماعيل الدرزى ، وكان أوفر ذكاء وبراعة ، فصاغ دعوته فى مذهب منظم ذى قواعد وأصول خاصة ، وألف كتاباً فى ذلك ؛ فقربه الحاكم وتمكن نفوذه لديه حتى غدا أقوى رجل فى الدولة ؛ ولكنه لما حاول إذاعة مذهبه والدعوة اليه بجامع القاهرة (الأزهر) ثار الناس عليه ، فالتجأ إلى القصر ، فحاصرته الجموع ، وأكره الحاكم خوفاً من الثورة ، وعاونه على الفرار ؛ فسار إلى الشام ، ونزل ببعض قرى بانياس ، ونشر دعوته ، فكانت أصل مذهب الدروز الشهير ؛ وقوامه القول بالتناسخ وحلول الروح ؛ وأن روح آدم انتقلت إلى على بن أبى طالب ، ثم انتقلت روح على إلى الحاكم بأمر الله

ثم ظهرت الدعوة كرة أخرى على يد حمزة بن على ، والظاهر أن حمزة عمل مدى حين مع الدرزى ثم اختلف معه وخاصمه ؛ كما يبدو ذلك فى إحدى رسائله [1] . وفى هذه الرسائل العجيبة يشرح لنا حمزة مذهبه فى «ألوهية» الحاكم بأمرالله ، ويقدم الينا شروحه وأسانيده ، ويحاول أن يعلل لنا كل ما ارتكبه الحاكم من الأعمال والاجراءات الشاذة ويتخذ منها سنداً لنظريته . وقد نسقت هذه الرسائل ، وهى ثمانية ، على حدة فى المجموعة المخطوطة الصغرى التى اقتنتها دار الكتب أخيراً ، وأشرنا اليها فيما تقدم ؛ ويلوح لنا أن هذه المجموعة تكون وحدة متصلة منتظمة ، وأن ما أدرج منها فى المجموعة الأخرى قد أدرج على سبيل الاختيار العام من مؤلفات الكاتب ؛ ولهذا نؤثر الاعتماد عليها فى عرض قواعد هذه الدعوة الغريبة التى كادت تحدث فى هذا العصر ثغرة خطيرة فى صرح الاسلام ومبادئه الحقيقية كتلك التى أحدثتها فورة القرامطة قبل ذلك بنحو قرن

يفتتح الداعى كتابه بما يسميه « ميثاق ولى الزمان » ، وفيه صورة الشهاده بالتبرؤ من جميع الأديان الأولى والدعوة إلى الدين الجديد ، أى عبادة الحاكم ؛ ثم يحدثنا عن أصل العالمين وبدء الخليقة فى عبارة غامضة ويقول إن أصل العالم هو البرودة والحرارة ؛ ويقدم الينا بعد ذلك خلاصة موجزة عن معركة على ومعاوية وبدء الحركة الشيعية ؛ ثم يصف الحاكم بأنه « مولانا القائم بذاته ، المنفرد عن مبتدعاته ، جل ذكره ، أورا العالم قدرة لاهوتيه عالم يقدر عليه ناطق فى عصره ولا أساس فى دهره ... » [1] ويطلق عليه لقب « قائم الزمان » ، فى جميع مراحل الدعوة رمزاً إلى القول بالحلول والتناسخ ، وأنه هو الرمز الحى القائم . ويعرض الداعى بعد ذلك فى جرأة إلى قواعد الاسلام ، وإلى ما بانى فى شأنها فى مجالس الحكمة الباطنية ؛ وهنا نستطيع أن نظفر بلمحة من الضياء على موضوعات تلك المجالس السرية الشهيرة التى لبثت عصراً تعقد بالقصر ثم انتظمت بعد ذلك فى جامعة خاصة هى دار الحكمة ؛ وأول ما نعرف هو أن السرية كانت قاعدة أساسية لهذه المجالس ، وأن من يجرؤ على إفشاء مناقشاتها يعتبر منافقاً وخارجاً يستحق اللعنة والعقاب [2] . وقد نقل إلينا المقريزى بياناً ضافياً عن المبادئ الكلامية العامة التى كانت تدور عليها الدعوة الفاطمية السرية فى مراتبها التسع ؛ ولكن الداعى يتناول هنا بعض الشروح الخاصة ؛ فيحدثنا عن الزكاة مثلاً بأنها فى الحقيقة ليست كما تلقى إلى الناس ؛ بل هى الاعتراف بولاية على بن طالب والأئمة من ذريته والتبرى من أعدائه أبى بكر وعثمان ، وأن معناها الباطن هو فى الحقيقة « توحيد مولانا جل ذكره ، وتزكية قلوبكم وتطهيرها من الحالتين جميعاً ، وترك ما كنتم عليه قديماً » [3] . وعن الصوم بأنه من الناحية الباطنة صيانة القلوب بتوحيد مولانا جل ذكره . أما الحج ورسومه فيحمل عليها الداعى بشدة ، ويصفها بأنها « من ضروب الجنون » وليس أدل على ذلك من أن قائم الزمان (الحاكم) قد قطع الحج والكسوة النبوية ، أعواماً طويلة ؛ ومعنى الحج فى الحقيقة والباطن « هو توحيد مولانا » [4] . وأما ترك الحاكم للصلاة والنحر (فى عيد الأضحى) فهو تحليل ذلك للعباد ، وقد أبطل الحاكم صلاة العيد وصلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، وأسقط الزكاة ، ومعنى ذلك أنه يحل للعباد (عباده) أن يقتدوا به فى ذلك « إذ كان إليه المنتهى ،

(١) راجع الرسالة الرابعة الموسومة بالغاية والنصيحة (ص ١٢٥ — ١٢٦ من المخطوط)

(١) ص ٢٥ من المخطوط
(٢) ص ٣٩ من المخطوط
(٣) ص ٣٥ من المخطوط
(٤) ص ٤٤

ومنه الابتداء فى جميع الأمور »[1]

ويؤرخ الداعى هذا القسم الأول ، وهو القسم التمهيدى من كتابه بشهر صفر سنة ثمان وأربعمائة من الهجرة (٤٠٨ هـ) ؛ ويقول لنا إن هـــذه السنة « هى أول سنين ظهور عبد مولانا ومملوكه ، هادى المستجيبين ، المنتقم بسيف مولانا جل ذكره ... الخ » ، ومعنى ذلك أن حمزة بن على كان ينتحل فوق صفة الداعى ، صفة الرسالة أو النبوة ، وسنرى أنه ينتحلها بعد ذلك صراحة . وهو يرجع بدء رسالته إلى هـذا التاريخ ؛ ثم يقول لنا فى خاتمة رسالته الأولى المسماة « بدء التوحيد لدعوة الحق » ، إن سنة ٤٠٨ هـ أيضاً « أول سنين قائم الزمان » أعنى بدء الزعم « بألوهية » الحاكم بأمر الله ، على يد هذا الداعى . وقد كان من قبل ثمة دعاة آخرون روجوا لهذا الزعم كما قدمنا ؛ والظاهر أن حمزة هو آخر من ظهر من حشد أولئك الملاحدة فى عصر الحاكم ، لأن الحاكم لم يطل أمد حكمه بعد ذلك سوى ثلاثة أعوام وبضعة أشهر ، وكان مصرعه فى شوال سنة ٤١١ هـ فى ظروف غامضة ، اتخذها الدعاة مستقى جديداً للزعم والأرجاف

ثم تأتى بعد ذلك الرسائل الثمان ؛ والأولى هى « بدء التوحيد لدعوة الحق » وفيها يدعو حمزة إلى « ألوهية » الحاكم ، ويحاول أن يبرر إبطاله لأحكام الشريعة بأن محمداً (ص) قد نسخ كل الشرائع السابقة ، فكذلك ينسخ الحاكم شريعة محمد[2] وينشئ له شريعة خاصة . وفى الرســـالة الثانية وهى « ميثاق النساء » يتحدث الداعى عن واجبات النساء فى الطاعة والتوحيد والبعد عن الفساد والدنس ، وألا يشغلن قلوبهن بغير توحيد « مولانا » وأن يكن صادقات وفيات فى طاعته ، وأن يتركن ما كن عليه من قبـل[3] ، وفى الرسالة الثالثة وهى « رسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد » يوصى الداعى بعبادة الحاكم ، والاقرار بوحدته ، ويقول إنه رفعها بنفسه إلى « الحضرة اللاهوتية » ، فى شهر المحرم الثانى من سنيه المباركة (المحرم سـنة ٤٠٩) ، وأنها نسخت عن خط قائم الزمان بغير تحريف ولا تبديل[4] ؛ وفى هذه العبارة مايستوقف النظر ؛ ذلك أنها تعنى أن الحاكم بأمر الله قد اشترك فى تأليف بعض هـذه الرسائل سواء بالكتابة أو الاشراف على كتابتها ، وأنه كان يرعى هذه الدعوة ويشجعها بنفسه ؛ وهنا أيضاً يعرض الداعى جوهر دعوته ولباب مذهبه ، أعنى فكرة الحلول ، فيزعم أنه من الخطأ أن يعتبر الحاكم ابناً للعزيز أو ينعت بأنه أبو على ؛ ذلك لأنه فى زعمه « المولى سبحانه هو هو فى كل عصر وزمان » يظهر فى صورة بشرية « كيف يشاء وحيث يشاء »[1] . وفى الرسالة الرابعة وعنوانها « الغاية النصيحة » يحاول الداعى أن يقيم المفاضلة بين الاسلام أو دين محمد والدين الجديد . وفى الخامسة وهى « كتاب فيـه حقائق مايظهر » يحاول أن يبرر بعض تصرفات الحاكم . وفى السادسة وهى « السيرة المستقيمة » يحدثنا عن آدم وأصل الخليقة ويزعم أن القرامطة هم الموحدون ؛ ثم يحدثنا عن تعاقب الشرائع ويزعم أن الاسلام قام بالعنف والسيف ، وأن الشريعة الاسلامية اختتمت بمحمد بن اسماعيل ، وأن آخر خلفاء اسماعيل هو عبد الله المهدى (مؤسس الدولة الفاطمية) ، وأن القائم هو الحاكم[2] وفى السابعة الموسومة « بكشف الحقائق » يلجأ الداعى إلى العبارات الرمزية ويقول : « والآن فقد دارت الأدوار ، وظهر ما كان مخفياً من مذهب الأبرار ، وبان للعالمين ما جعلوه تحت الجدار ، وعادت الدائرة إلى نقطة البيكار ، فألفت هذا الكتاب ، بتأييد مولانا البار ، الحاكم القهار ، العلى الجبار ، سبحانه وتعالى عن مقالات الكفار ، وسميته كشف الحقائق .. » ولعله يريد بهـذا الاسم ــ كشف الحقائق ــ عنوان الكتاب كله ، لا الرســـالة الموسومة بهذا الاسم فقط ، فاذا صح ذلك فنكون أيضاً قد عرفنا اسم كتاب حمزة . وفى هذه الرسالة يزعم الداعى أن الاله بشر يأكل ويشرب ، وليس كما زعموا من التجرد عن الصفات البشرية ، ويقـدم لنا شرحاً فلسفياً للعقل والنفس . وفى الرسالة الثامنة والأخيرة ، وعنوانها « سبب الأسباب » يتخذ الداعى صفة الهادى والمعلم الأكبر بتفويض مولاه

« للبحث بقية »

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) ص ٢٩ و ٣٠ و ٣٤
(٢) المخطوط ص ٥٣ و ٥٤
(٣) ص ٧٣
(٤) ص ٧٥

(١) ص ٨٦ (٢) ص ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٨